

بين الأسطورة والتاريخ

هل اصرف فأخ الأندلس سفن ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتخذ شخصية طارق بن زياد فأخ الأندلس مكانها بين عظمة الفاتحين ، لا في التاريخ الاسلامي وحده ، ولكن في تاريخ الأمم القديمة كلها ؟ وتعتبر موقعة شدونه أو « مدينة سدونيا » من أعظم الوقائع الحاسمة في تاريخ الانسانية ، ففيها افتتح العرب اسبانيا وغنموا ملك القوط ، وشادوا صرح تلك الدولة الأندلسية الزاهرة التي لبثت قروناً تبهر أمم الغرب بقوتها ونظامها ورائع حضارتها وفنونها . بيد أنه من القريب أن شخصية الفاتح العظيم — طارق — بينما تبدو في بعض نواحيها وضاعة مشرقة ، إذا بها تبدو في البعض الآخر خفية يكتنفها الغموض ؛ فالرواية الاسلامية تختلف حول نشأة طارق وحول نسبه وجنسيته ، وتكاد تسدل على مصيره بعد الفتح ستاراً من الصمت والنسيان ولنا نمرض في هذا البحث لشخصية طارق أو تاريخه أو اختلاف الرواية في شأنه ، ولكننا نعرض لواقعة ترتبط باسمه ، وقد يقلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا في لون التاريخ الحق ، تلك هي واقعة إحراق السفن التي نقل عليها طارق جيشه من الشاطئ الأفريقي إلى شاطئ الأندلس . ونحن نعرف أن فتح الأندلس قد تم بدعوة من الكونت يوليان القوطي حاكم سبته والضييق لخصومة سياسية وشخصية بينه وبين رودريك (لدرين) ملك القوط ، وأنه طاون العرب بخدماته ونصحه ، وأنه هو الذي قدم السفن التي عبر العرب عليها إلى الأندلس في بمتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك

واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا إلا من تاب »

هل للأزهر ووزارة الأوقاف أن يتعاونوا على إصلاح المسجد ويضما البرامج له على أنه مرفق اجتماعي كما هو مركز ديني ؟؟

إن إصلاحه على هذا الوضع تقوية للدين ، وإصلاح للناس ما

أحمد أمين

في القطار الى (رأس البر)

أو من تقدمت به السن من عامة الناس . أما الشباب المثقفون ومن أنعم الله عليهم بشيء من رغد العيش فلا يفكرون في المسجد ولا يخدمهم أنفسهم بزيارته ، وإن دخلوا لا يعرفوا كيف تؤدَّى شعائره إلا القليل النادر ، كأن السينما والمسجد اقتسما الناس ، نفص المسجد بالشيوخ والمجاثر والفقراء ، وخص السينما بالفتيان والفتيات والأغنياء ، وهي حال لا تشمر بأمل ، ولا تبشر بخير ووزارة الأوقاف كذلك عدت المساجد « آثاراً » ، فهي تسير في تعيين أئمتها وخطبائها وفي مراقبتها سير القرون الخالية كأن الزمن لا يسير

والأئمة والخطباء ياملونها معاملة « الآثار » فهم يقرأون غالباً الخطب التي ألقت في القرون الماضية ، فلا تحرك نفساً ولا تحيي همة — كل ما فيها « اتقوا الله » إجمالاً من غير تفصيل . أما ما يحدث بيننا من أحداث ، وأما ما نشعر به من مصائب وما ينتابنا من كوارث ، فلا دخل لهم فيه ، لأن دواوين القدماء لم تنص عليه

ورجبت السياسة بهذا النظر الأتري إلى المساجد فاطمأنت إليه لأنه يخدمها ، وإلا فما بالنا نرى المسجد بعيداً عن الناس هذا البعد ، هل لو أراد الخطباء غير الامام أن يخطبوا في المسجد في إصلاح الحالة الاجتماعية أوجب طلبهم ؟ وهل لو نظمت محاضرات ثقافية في المسجد للشبان مرة والشباب مرة في الأخلاق والتربية الوطنية تسمح وزارة الأوقاف بذلك ؟ أكبر الظن أن لا

الحق أن للناس بعض العذر في الانصراف عن المساجد ، فلو عرف الخطباء كيف يكلمون الناس وعرف رجال الدين كيف يصلون إلى قلوبهم ، وشعر الناس أنهم يجردون في المسجد متمتعاً روحية وغذاءً دينياً واجتماعياً ، لتغير الحال وازدهم المسجد بالناس من جميع الطبقات

وقد كان المسجد في الاسلام يقوم بهذه النواحي التي ذكرنا ، فالخلفاء ونوابهم كانوا يخطبون في المشاكل الحاضرة — وكانوا يخطبون كلما حزبتهم أمر أو عرض لهم مهم ، وكان للمسجد مدرسة للمعلمين والتعلمين والشعراء والتأديين ، وكان المسجد مكتبة للواردين والمترددين ، وكان المسجد مجمع للناس في الأعياد والمواسم ، وكان المسجد مكتب الصغار ومدرسة الكبار ، ولوسار في طريقه وتأقلم مع الزمن لكان يؤدي كل الخدم الاجتماعية التي أشرنا إليها من قبل ولكن « خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ،

هذا الخطاب فعلاً - وهو ما نراه موضع الشك - فإنه يمكن تفسيره بأن السفن التي عبر عليها طارق وجيشه كانت ملكاً للكونت يوليان القوطي، ولم تكن مستوى أربع، وقد عبر الجيش الإسلامي عليها تباعاً في مرات عدة، فمن المقبول إذاً أن يعتبر طارق أنه في حالة الهزيمة لم تكن لديه وسيلة سريعة للارتداد وعبور البحر إلى إفريقيا على أما نستطيع مع ذلك أن نأخذ برواية الشريف الإدريسي؛ وإذا كان احتراق السفن على هذا النحو لقطع الرجعة والارتداد على جيش فاتح عمل بطولية رائع، فإنه لما يتفق مع بطولية فاتح الأندلس، وليس موقف قيصر في غالباً أو موقف بوابارت في إيطاليا فيما بعد بأدنى للاعجاب من موقف طارق في سهل شريش (مكان اللقاء الخامس).

والظاهر أن إقدام الفزاة على إحراق السفن على هذا النحو الذي تنسبه الرواية لفاتح الأندلس نوع من أساطير البطولة الحارقة التي ترجع إلى أقدم عصور التاريخ؛ ففى كثير من مواطن التاريخ القديم المزيج بخوارق الأسطورة. تعرض مثل هذه الواقعة للتنويه بعمل بطولية خارق. على أننا لا نندم أيضاً في التاريخ الحق أمثلة واقعة منها. ففى التاريخ الرومانى مثل رائع لهذا الحدث هو مثل الإمبراطور يوليان في حملته الفارسية. وكان يوليان مذ جلس على عرش قسطنطينية، يتوق إلى غزو فارس ومحطم تلك الدولة المشاغبة التي ما نزلت منذ الحقب تناهض دولة القياصرة، وكان مثل الاسكندر المقدوني يحفز به ويذكرى عزيمته؛ ففى سنة ٣٦٣ م، حار يوليان من انطاكية حيث كان ينظم أهبته في جيش ضخم، واخترق صحراء الشام من جهة الشمال، ثم سار جنوباً بجذاء الفرات، وسار في نفس الوقت في الفرات أسطول روماني ضخم يحمل أقوات الجيش؛ ثم عبر يوليان نهر الفرات، واجتاح بلاد الأشوريين، وأشرف على شهر دجلة حيث كان الفرس في انتظاره في الضفة الأخرى؛ وحمل الرومان سفنهم المشحونة بالوزن والذخيرة من الفرات إلى الدجلة بمد جهود ومشاق ماثلة؛ واعتزم الإمبراطور أن يعبر الدجلة بجيشه ليقابل سابور ملك الفرس في قاب مملكته كما فعل الاسكندر من قبل حيث هاجم الفرس في عقر أرضهم؛ وهنا اعتزم الإمبراطور جلاء أن ينقذ فكرة جريئة جالت بخاطره.

(رمضان سنة ٩١) ثم في حملتهم الغازية بقيادة طارق بن زياد (رجب سنة ٩٢ - ابريل سنة ٢٧١١). وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى إسبانيا حتى أمر بإحراق السفن التي عبر عليها جيشه وذلك لكي يدفع جنده إلى الاستبسال والموت أو الظفر، ويقطع عليهم كل فكرة في التخاذل أو الارتداد. فما يبلغ هذه الرواية من الصحة؟ إن جميع الروايات الإسلامية التي محدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة، ولا تذكرها سوى بعض الروايات النصرانية المعاصرة أو المتأخرة؛ ولا تذكرها الرواية الإسلامية إلا في موطن واحد، فقد ذكر الشريف الإدريسي في منجمه الجغرافى الشهير «زهوة المشتاق» عند الكلام على جغرافية الأندلس أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس^(١)؛ وقد نقلت الروايات النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الإدريسي فيما يرجح؛ وقبلاً عند ذلك فإن جميع الروايات الإسلامية تمر عليها بالصمت المطبق وهتالك وجه آخر لتأييد هذه الرواية هو الخطاب الذي يقال إن طارقاً ألقاه في جنده قبيل دخول الواقعة الحاسمة بينه وبين القوط؛ ونحن نعرف هذا الخطاب الشهير الذي مازال يحفظه الطلاب كنموذج من أروع نماذج البلاغة العربية؛ فقد استعمله طارق بقوله: «أيها الناس؛ أين الفرس؟ البحر من وراءكم والمدى أمامكم؛ وليس لكم والله إلا الصدق والصبر...» وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد تجرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الأفريقى، أو بعبارة أخرى قد تجرد من السفن التي حملته في عرض البحر إلى إسبانيا؛ ولكننا نلاحظ من جهة أخرى أن هذا الخطاب الحربى الشهير الذي تنسبه الرواية الإسلامية المتأخرة إلى طارق، لم يرد في روايات المؤرخين للتقدمين؛ فثلاً لم يذكره ابن عبد الحكم والبلاذرى وما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية؛ وذكره ابن قتيبة، ولم يشر إليه ابن الأثير وابن خلدون، ونقله القرئى عن مؤرخ لم يذكر اسمه^(٢)، وهو على العموم أكثر ظهوراً في كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين؛ وعلى ذلك فليس فى وسعنا أن نتخذ دليلاً مادياً على واقعة إحراق السفن؛ ولو صح أن طارقاً قد ألقى مثل

(١) راجع «زهوة للمشتاق» لفتح رومة ص ١٧٨

(٢) فتح العليب ج ١ ص ١١٢

وهي أن يحرق أسطول الراسى في دجلة ؛ وفي الحال تفذت الفكرة وأحرق الأسطول الرومانى الضخم ولم تنفذ منه سوى سفن قلائل استبقيت لاجتياز الأنهر ، ولم يتزود الجيش الامبراطورى إلا بمئونة عشرين يوماً ؛ وكان يوليان يرى بذلك الاجراء إلى غاية حرية حكيمة هي ألا يمكن القوات الفارسية المحصورة في مدينة اكتسيفون قاعدة الجزيرة من انتهاء فرصة توغله في الداخل ومهاجمة أسطوله والاستيلاء عليه وعلى المؤن التي يحملها غنيمة باردة . وقد حكم التاريخ على يوليان ولم يحكم له ، ذلك لأنه لم يكن موفقاً في غزوه ، وقد لقي جزاء جرأته في نكبة جيشه أمام الفرس وفي مصرعه متأثراً بجراحه ؛ وارتد الجيش الرومانى مهزوماً ممزقاً ونجحت فارس بحريتها واستقلالها مدى ثلاثة قرون أخرى حتى كان الفتح العربى

وفي التاريخ الحديث مثل واقعى رائع أعدت فيه سفن الجيش الفانج ، هو مثل هرناندو كورتيز فانج المكسيك ؛ ومن غرائب القدر أن يكون أروع نموذج لهذا الضرب من البطولة اسبانياً يذكرنا بطارق فانج اسبانيا وما ينسب إليه في هذا الصدد . ومن المرجح جداً أن يكون فانج المكسيك قد تأثر بالمثل الرائع الذى تنسبه الرواية لفانج الأندلس ؛ وقد كان طارق وكورتيز في الواقع كلاهما أمام ظروف متماثلة : مغامرة مجهولة الظروف والمواقف ، ومحاولة جريئة لافتتاح أرض جديدة وعالم جديد ، وجيش قليل العدد ليواجه جيوشاً زاخرة لا يعلم نوعها ولا مدى قوتها . بيد أن مغامرة كورتيز وقعت في ظروف أكثر دقة وخطورة ؛ فقد كانت اسبانيا من أمم العالم القديم ولم تكن مجهولة تماماً من العرب وكان بها شعب قديم يتمتع بمحضارة لا بأس بها ؛ ولكن كورتيز كان أمام عالم مجهول تكنتفه الظلمات من كل ناحية ، ولم يكن يعرف ما هي الأرض ، وما هي الأمم التي يزمع اقتحامها بجنده القليل وصل كورتيز في أسطوله التواضع الى مياه المكسيك في سنة ١٥١٩ ليغزو امبراطورية « الازتكين » الهندية ، ولم يكن يعرف الأسبان يومئذ عنها شيئاً إلا أنها امبراطورية ضخمة قنية تفيض بالنعم والذهب الوهاج ؛ وما كاد كورتيز وجنده يضمون أقدامهم في الأرض الجديدة ، حتى فكر الفانج الجريء في إعدام سفنه ؛ وأعدمت في الحال باعراقها ؛ وكان كورتيز يرى بهذا

الاجراء إلى غاية ظاهرة هي ألا يدع إلى قلوب جنده سبيلاً إلى الخور أو أملاً في الارتداد . إما الظفر أو الموت ؛ هكذا كان شعار كورتيز ، وهكذا كان عزمه وخطته ، وكان عملاً جريئاً ، ولكن ضرورياً ، حتى لا يبعد الناقدون أى وسيلة لمغادرة إخوانهم ، وحتى يرتقى الجميع في أحضان الموت لا يلمسون به بدلاً سوى الظفر . ولا ريب أن عمل كورتيز عمل بطولة خارق ، وربما كان أعظم عمل من نوعه في التاريخ ، لأن الفانج الأسباني تقدم في جرأة مدهشة لافتتاح الامبراطورية الهندية العظيمة بجيش لا يبدو عدة مثات ، ولم يحجم مع ذلك عن إعدام أسطوله ، وهو وسيلته الوحيدة للنجاة في حالة الهزيمة والفشل ؛ وكان ظفره بافتتاح ذلك العالم الجديد عظيماً مدهشاً^(١)

ومثل هذه الحوادث تبدو في التاريخ كالأسطورة وقد تتخرج أحياناً بالأساطير ؛ وكلما بعدت في ثنايا التاريخ كلما كان امتزاجها بالأسطورة أشد وأقوى . بيد أننا هنا أمام أمثلة واقعة . وفي التاريخ حوادث من نوع مماثل في شدوده وروعته ما زالت في عصرنا تبدو كالأحاجيب الخارقة ، فمثلاً يذكر التاريخ أن عمداً الثانى سلطان الترك الممانيين وفانج قسطنطينية ، حينما حاصر قسطنطينية من البر والبحر ، ولم يستطع أسطوله أن يقتحم خليج القرن الذهبى الذى تقع عليه المدينة من البحر ، اعتمد في الحال أن ينقل أسطوله إلى البر ، مما بلى مؤخرة القرن الذهبى ، ونفذ مشروعه الخارق بالفعل وتقل أسطوله الضخم على طريق من الخشب المثلج بالهمن والشحم ، ثم دفعه إلى داخل القرن الذهبى ؛ وبذلك تم تطويق المدينة ، ولم تلبث أن سقطت في أيدي الفزاة (١٤٥٣ م) . بيد أن هذه الحوادث والأعمال الخارقة لا تبدو في روعتها الحقيقية إلا إذا اسطبنت بألوان مصر الذى وقعت فيه ، وقد بنقص من قدرها إذا قدرت بعبارة عصرنا ، وتفههما بروح مصر الذى وقعت فيه هو وحده الذى يسبغ عليها هذا اللون القوى من البطولة الخارقة ، وهذا السحر الذى تبثه إلينا أعمال تشبه الأساطير في روعتها

محمد عبد الله عتاه

(١) نرى أن لشير هذا إلى كتاب من أيدع-كتب التاريخ هو « فتح المكسيك » Conquest of Mexico بقلم اللورخ الأمريكى ولين برسكوت ، فيه مرض بديع لسيرة هذا البطل الفانج وأعماله العظيمة